إضاءة

عن أكاذيب الحكومات الغربية وصحوة شعوبها

السائرون بعيداً عن الاحتلال

يعكس مقطع الفيديو، الذي بثّه صانع محتوى بريطاني عبر قناته على «يوتيوب» وتناول فيه قضية فلسطين وما يحدث من حرب إبادة صهيونية على غزّة، صحوةً تتنامى بين قطاع واسع من الشباب الغربي الذي كشف زيف حكوماته وقرر السير بعيداً عن سياساتها في دعم الاحتلال

يزن التميمي

بالصدفة ظهر لي فيديو «Palestine»، بعنوان من كلمة واحدة، ومن دون أي توصيف إضافي، وبصورة ثابتة تختلف عن أيّ شيء مُرتبط بالقضية الفلسطينية، أو حرب الإبادة الصهيونية القائمة في غزّة، تُشبه خلفيّات مقاطع فيديو الموسيقى الهادئة التي تُساعد على القراءة أو الدراسة أو التفكير، بحاسوب مفتوح أمامه مشروب ساخن يتصاعد منه البخار، وجمجمة تلبس نظّارة تجلس على الكرسيّ المقابل، وتتصفّح ما على شاشة الحاسوب، كلّ هذا في مكتب يُطلّ على مدينة هادئة.

لم أكن أتوقّع أيّ شيء يُمكن أن يكون عليه محتوى الفيديو، لكنّني دخلت بفضول جارف، وبدأتُ أسمع. شابٌّ يتحدّث بلهجة بريطانية، والفيديو أقرب للبودكاست، لكن مع بعض الصور والفيديوهات القصيرة للتدليل على محتواه. يتحدّث صاحب الفيديو (اسمُ قناته Shaun) عن علاقته الشخصية بالقضية الفلسطينية، وكيف بدأ بالتفاعل معها والتعمّق فيها.

نبرة الحديث تختلف إلى حدّ ما عن أغلب الفيديوهات والبودكاستات المتعلّقة بفلسطين والتي تنتشر بقوة مؤخّراً، في كلّ مكان وجهة حول العالم، فالشابّ لا يُحاول أن يشرح تاريخ الحركة الصهيونية، ولا أن يوضّح للمُشاهِد أبعاد ما يحدث في غزّة، كان يتحدّث من منطلق إنساني واعٍ، أي عن تفاعُله الإنساني القائم على السؤال والتحرّي وإعادة النظر في الأخبار التي تصله والتعليقات عليها.

يبدأ كلامه بأنه اليوم يُريد أن يتحدّث مع متابعيه عن الأحداث الجارية في فلسطين، رغم أنه في العادة يقدّم محتوىً من نوع آخر، ولا يتضمّن التعليق على أحداث جارية، بالنظر إلى بقية محتوى القناة، فهو كان يركّز على أشياء تاريخية. السبب في هذه الخطوة هو أنه، حسب قوله، لا يستطيع التركيز على أي شيء آخر في هذه الفترة، وأن الأحداث في فلسطين أصعب من تجاهلها أو الانشغال عنها. يقول إن بداية تعرّفه على القضية الفلسطينية، كانت حين صُدم سنة 2014 أثناء العدوان الإسرائيلي على غزّة، بصورة نشرها مصوّر إسرائيلي، لمجموعة من الإسرائيليين، يجلسون على تلّة قريبة من القطاع، يراقبون بفرح القنابل التي تُسقطها قوّاتهم الجوّية على غزّة، ويهتفون لها وهي تقتل مئات من المدنيّين. يقول إن هذه الصورة غيّرت الكثير داخله، إذ كان، مثله مثل أغلب الجمهور الأوروبي والغربي، يحمل تصوّراً ساذجاً عن النزاع في فلسطين، وهو أنها «حرب دينية بين فئتين تتقاتلان بين الحين والآخر» ثم يزيد أنه «ولسبب ما، كان يعتقد أنّ الإسرائيليّين هُم الأخيار في هذه الحرب، وأنّهم حلفاء الغرب وأبناء الديمقراطية». لكن، لماذا كان يعتقد هذا؟ لماذا هذه هي صورة «إسرائيل» في الغرب؟ يقول: «إنّه لا يعرف، وكلّ ما يعرفه أنّ هذه هي وجهة نظر حكومته وكلّ حكومات الغرب، وهو رأيُ أغلب الكتّاب والناشرين الغربيّين». لكن تلك الصورة التي رآها دمّرت هذه النظرة إلى الأبد، فكيف يُمكن لـ«أخيار» أن يجلسوا على تلّ يحتفلون بموت مئات الأطفال والنساء والرجال الأبرياء؟

يشعر صانع المحتوى هذا، هُنا، أنه جزء من الصراع وطرفٌ فيه، وهذا يسبّب له أزمةً أخلاقية كبيرة، يُحاول من خلال حديثه إلى متابعيه أن يخبرهم أنهم مشاركون بحرب الإبادة في فلسطين، وأنه لا يوجد طريقة لتجميل ذلك، لأن حكومته وحكومات الغرب كلّها تدعم «إسرائيل» بالمال والعتاد والتغطية الدبلوماسية، فقط لأن «إسرائيل» هذه تُمثّل - حسب رأي رجال السياسة والإعلام - الجانب الذي يتبنّى «القيم الديمقراطية الغربية»، وتمثّل امتداداً للحضارة الغربية. يقول إن هذه الحجّة لا يجب أن تنطلي حتى على شخص غير مُطّلع أو فاهم لأحداث كما كان هو قبل عام 2014، خصوصاً أنّ دولة الاحتلال أبعد ما تكون عن كلّ هذه الصفات، وكلّ أفعالها وتصرّفاتها وتصريحات سياسييها أشبه بما يُقرأ من أزمنة غابرة تظنّ أوروبا أنها تجاوزتها من عشرات، بل مئات السنين. ثم يبدأ بعرض الكثير من الأمثلة الكاشفة لأداء «إسرائيل» أثناء الحرب، وكيف أنها لا يُمكن بأيّ حال أن تُمثّل الصورة التي يُحاول السياسيّون الغربيّون إيصالها للشباب والمتلقّين الغربيّين، وكيف يُصرّ هؤلاء دائماً أثناء تبرير دعمهم لهذه «البربرية الهابطة من كتب التاريخ التي عفا عليها الزمن» على أنّ المسألة شديدة التعقيد، وصعبة على فهم العامّة، وأنّ عليهم أن يثقوا برأي النُخبة الحاكمة حولها، ويستمرّوا في دعمهم واصطفافهم خلف «إسرائيل». بالنسبة لصاحب الفيديو هذا هراء، والمسألة أبسط بكثير من ذلك. هو يرى أنّ القضية تاريخياً فيها شيء من الصعوبة لكثرة التفاصيل والأحداث، أما أخلاقياً فهي بسيطة جداً وواضحة. هنا يبدأ بعرض مختصر جداً لتاريخ الصهيونية ولنشأة دولة الاحتلال على الأراضي الفلسطينية، مستفيداً بشكل أساسي من كتاب «حرب المائة عام» لرشيد خالدي، والذي نصح متابعيه بشدّة بقراءته، من الأشياء الأساسية التي توقّف عندها صاحب الفيديو كان «وعد بلفور»، وشخصية هذا الرجل الذي وعد اليهود بدولة في فلسطين رغم أنه، أي بلفور، في الأساس معادٍ لليهودية. فهْمُ شخصية بلفور وتركيبته السياسية ساعد صاحب الفيديو على فَهْم تصرُّف الأحزاب اليمينية في أوروبا والغرب، والذي قد يبدو مُربكاً وغريباً، فهُم بالأساس معادُون لليهودية لكنّهم شديدو الدعم لـ«إسرائيل». يقول إن هذا «التناقض الظاهري» كان أيضاً موجوداً عند بلفور، الذي كان يرغب في منع هجرة اليهود إلى غرب أوروبا، ويؤكّد على استحالة اندماجهم في المجتمعات الأوروبية، وأن هجرتهم إلى فلسطين ستخفّف من أعباء وجودهم في أوروبا، وهو ما تبنّته ووافقت عليه الحركة الصهيونية. يؤكّد صاحب الفيديو إذن أن وقوف اليمين الغربي خلف «إسرائيل» يعود إلى سببين، الأول هو رغبة هؤلاء في التخلّص من اليهود من مجتمعاتهم، والثاني لأن خطاب دولة الاحتلال شبيه إلى حدّ التطابق مع الخطاب القومي الذي تتبنّاه هذه الأحزاب، فهي ترى دولة الاحتلال مثالاً يريدون تطبيقه في بلادهم. هنا يلفت صاحب الفيديو إلى خطورة هذا التحالُف اليميني، ليس لما يقوم به من إبادة في قطاع غزّة فحسب، بل وعلى استقرار وحرّية وأمن الدول الغربية نفسها.

جانب من مظاهرة مليونية مطالبة بوقف إطلاق النار، لندن، 9 آذار/ مارس 2024 (Getty)

> لا حجّة اليوم لأيّ إنسان أن يدّعي عدم معرفته الحقيقة

خروج من التواطؤ

بعد كثير من التفاصيل التي سردها صانع المحتوى البريطاني في فيديو «Palestine»، ختم بمحاولة إيجاد طريقة للخروج من دور الجاني المتواطئ، حيث استشهد بقصة «السائرون بعيداً عن أوميلاس» للكاتبة الأميركية أورسولا لي غوين، موجّها دعوته لمتابعيه أن يكونوا كالذين غادروا أوميلاس، وأن تملّ أصواتهم بعدم دعم أي سياسي يُساند دولة الاحتلال، وأن يثقّفوا أنفسهم حول القضية، و«ألا يركنوا إلى الدعاية الإسرائيلية».

مع غزّة

أحلم بنصّ عالٍ مثل المواقف الكبرى لغزّة

عبد الهادي سعدون

تقف هذه الزاوية مع مبدع عربي في أيام العدوان على غزّة وكيف أثّر على إنتاجه وحياته اليومية، وبعض ما يودّ مشاركته مع القرّاء

مُحاور: العربي الجديد

■ ما الهاجس الذي يشغلك هذه الأيام في ظل ما يجري من عدوان إبادةٍ على غزّة؟

لم يعد هاجساً، أصبح كابوساً، أنهضُ معه وأنامُ معه، وما يقلقني من الداخل أنّنا جميعاً مشاركون فيه بشكل أو بآخر. لم نعد بشراً بضمائر وأحاسيس ومشاعر، لم نعُد نواجه الحقيقة، أصبحنا ندير وجوهنا وضمائرنا إلى وجهات أخرى حتّى لا نشهد الجريمة.. هنا كابوسي أحمله ليل نهار مع كوابيس عوالمنا العربية، وكأنه صلبي أينما أمضي.

■ كيف أثّر العدوان على حياتك اليومية والإبداعية؟

لم أعُد التفتُ للكثير من مظاهر الحياة وأنا أرى الموت الحاضر في كلّ لحظة من لحظات الفلسطيني الغزّي. الصدق أنّ متعة الحياة بدأت تتضاءل أمام الإبادة المبرمجة بينما لا أجد في يدي ما أفعله غير الصراخ والاحتجاج، الإبداع هنا يحتاج إلى ركلة قويّة كي ينهض بنصّ كبير مثل المواقف الكبرى لغزّة.

■ إلى أي درجة تشعر أن العمل الإبداعي ممكنٌ وفعّال في مواجهة حرب الإبادة التي يقوم بها النظام الصهيوني في فلسطين اليوم؟

أصدقك القول إنني لا أرى أيّ أثر للعمل الإبداعي إزاء ماكينة الصهاينة الخطيرة، وهذا المسه في أوروبا، وفي كلّ زاوية، على الرغم من المواقف الإنسانية الكبيرة للمجتمع الأوروبي، قياساً لمواقف الحكومات السياسية. سيكون فعّالاً لو عشنا في عالم مُنصف وصادق، لكن الإنصاف والصدق لم يعودا حاضرَين، ومع فلسطين وما يعيشه أهلنا الغزّيّون، كان الأغلبية في وادٍ آخر وعالم مختلف.

■ لو قيّض لك البدء من جديد، هل ستختار المجال الإبداعي أو مجالاً آخر، كالعمل السياسي أو النضالي أو الإنساني؟

لم أعرف مهنة غيرها، ولكنّني لو كنتُ هناك مع الغزّيّين لكنتُ في خندق آخر بلا شك. الخندق الواقعي بكل شجوته وأدواته الممكنة.

■ ما هو التغيير الذي تنتظره أو تريده في العالم؟

لا أنتظر تغييراً من العالم، ما أريده هو نظرة صدق وحرال ضمير لا غير، عندها فحسب ستتفتّح الأعين على هول ما نعيش، وعلى مأساة أهلنا في غزّة، أمام الإبادة الوحشيّة التي ابتدأت ولم تنته بعد.

■ شخصية إبداعية مقاومة من الماضي تودّ لقاءها، وماذا ستقول لها؟

أودّ لو ألتقي بغسان كنفاني، كاتبي المفضّل، المناضل وصاحب الكلمة الحقيقية المبدعة في الزمن الفلسطيني الطويل، سأكون معه فعلاً، لكنّنا لن نتكلّم، بالتأكيد سيحملني معه حتى هناك، وسنقوم بالكتابة طويلاً وسنعيش مع الغزّيّين، وسأخبره أن ما كتبه لم يمحه أحد، وكلّ ما قاله يصير اليوم من أفعال البطولة والتحدّي وخيانة البعض كذلك، وإن الفلسطيني الوحيد بقي وحيداً إلّا من ضمائر إنسانية قليلة تسنده اليوم في محنة الإبادة الشرسة. ثُرى هل سنعيد تسطير قصصه ورواياته من جديد، وسنتذكّر حتماً البيت الشعري لأنطونيو ماتشادو في تذكّر مقتل لوركا وهو يكرّر «الجريمة حدثت في غرناطة»، وليس علينا سوى تغيير المكان، لأن الجريمة حدثت وتحدث في غزّة.

> كابوسي أحمله ليل نهار مع كوابيس عوالمنا العربية

■ كلمة أخيرة تقولها للناس في غزّة؟

أناديكم وأشدّ على أياديكم وأقبّل الأرض التي تحت نعالكم وأفديكم. ليت الكلمة تتحوّل إلى فعل ينتفض وينهض ويثور فعلاً.

■ كلمة تقولها للإنسان العربي في كلّ مكان؟

لم يعد من جدوى لكلّ حكوماتكم وسياساتها، الكلمة الآن لكم، إمّا الآن وإلّا فلا شيء سيحصل.

■ حين سُئلت الطفلة الجريحة دارين البيّاع التي فقدت معظم أفراد عائلتها في العدوان، ماذا تريدين من العالم، أجابت «رسالتي للناس إذا بيحبوا دارين يكتبوا لي رسالة أو أي إشي». ماذا تقول لدارين ولأطفال فلسطين؟

أقول لدارين كما قلت لطالبة عندي في «جامعة مدريد» من أصول غزّية، وهي لا حول لها ولا قوّة، تراقب موت أهلها ومن بقي منهم في غزّة، رسالتك أن تعيشي وأن تحكي وأن تكتبي لو استطعت حتى لا ينسى الآخرون أنك حاضرة، وأن كلمتك ومحيّاك سيبقيان ولا يُمكن محوهما الذاكرة، ذاكرتنا وذاكرة الناس الطيّبين المناصرين لنا من جهات عديدة.

عبد الهادي سعدون

بطاقة

شاعر وروائي ومترجم عراقي من مواليد بغداد عام 1968، يقيم في مدريد منذ عام 1993. يعمل حالياً أستاذاً للغة والأدب العربي في «جامعة مدريد». له في الرواية: «مذكّرات كلب عراقي» (2012)، و«العودة إلى الأرض» (2015)، و«تقرير عن السرقة» (2020)، و«متنزه الحريم» (2022). صدر له في الشعر: «الكلّ يكتب عن الحبّ إلّا أنت» (2018)، و«توازن هشّ» (2022). ومن دراساته باللغة الإسبانية: «شعر نساء العراق الشعبي» (2020)، و«المعلّقات العربية دراسة وترجمة» (2022).

متابعة

غسّان أبو ستّة الارتباط بغزّة يحدّد مصير حياتنا

جدلية الطبّ والتحرّر الوطني الفلسطيني

أكّد الطبيب الفلسطيني في حديثه لـ «بودكاست تقارب» أنّ صمود القطاع الطبي في غزّة بوجه التطهير العرقي امتداد لتجربة مديدة يمكن البناء عليها

بيروت ـ العربي الجديد

ضمن «أسبوع فلسطين» الذي نظّمته «الجامعة الأميركية» في بيروت مؤخّراً، حلّ الطبيب الفلسطيني غسّان أبو ستّة ضيفاً على صاحب «بودكاست تقارب»، المدوّن وصانع المحتوى الفلسطيني أحمد البيقاوي، حيث تشاركا الحديث أمام الجمهور في حرم الجامعة لمدّة تقرب من الساعتين، وبُثت الحلقة في الخامس عشر من آذار/ مارس الجاري، عبر قناة البيقاوي على منصّة «يوتيوب».

تناول أبو ستّة في بداية حديثه نشأته وخلفياته العائلية والعلمية التي قدّم منها، والتقاطعات بينهما التي أسّست لإرثٍ مُمتدّ من النضال الوطني بين أجيال العائلة وتفرّعاتها، ثم انتقل للحديث عن ملامح من مقاومة الشعب الفلسطيني اليومية والمستمرّة منذ أكثر من خمسة وسبعين عاماً، مُعتبراً «أنّ كلّ التضحيات الشخصية أمامها تبقى يسيرة، وفي ظلّ الحروب ننغمس في العمل الإغاثي والطبّي نتيجة شعور بالمسؤولية، ولكن بعد الحرب دائماً تكون الدوافع والجهود أكبر». واستطرد: «مجزرة تل الزعتر كانت الخطوة الأولى التي صنعت وعيي السياسي، على المستوى الشخصي، في ضرورة مقاومة الاحتلال، وسرعان ما تأكّدت هذه الرؤية بعد سنوات قليلة مع اجتياح بيروت عام 1982».

وعن علاقة الطبّ والطبابة بحالة التحرُّر في السياق الفلسطيني، أكّد أبو ستّة هذه الميّزة دونًا عن حركات التحرّر الوطني والنضال ضد الاستعمار حول العالم، حيث لعبت «نقابة الأطباء» و«الهلال الأحمر الفلسطيني» دوراً محورياً من بين كل مؤسّسات «منظّمة التحرير» حتى نهاية الثمانينيات وبداية «أوسلو»، التي كانت «سمّاً تطلّب الكثير من الوقت حتى يبرأ منه الجسد الفلسطيني، لأنّها لم تكن اتّفاقية وحسب، بل ثقافة أيضاً»، ورأى في جدلية الطبّ والتحرّر الفلسطيني هذه «بُعداً تعبوياً مُهمّاً لحشد الجماهير من خلال الرعاية الصحّية، والصمود أمام الإبادة الراهنة في غزّة، من قبل القطاع الطبي، هو امتدادٌ لهذه التجربة وبناءً عليها، لأن تدمير المستشفيات هو جزء من التطهير العرقي».

> أصبح الارتباط بغزّة أعمق، سواء على المستوى الشخصي أو العامّ

وأوضح أبو ستّة «أنّ مرحلة الحصار، قبل العدوان، كان الهدف منها إبقاء الناس في مرحلة برزخية، ما بين الموت غير المكتمل والحياة المنتقصة، لكن ما حدث خلال الأشهر الماضية، وحالة التفاني المعمّمة هي ما حفظت القطاع الطبي بعمومه، رغم أنّ آلة القتل الإسرائيلية كانت تنتقل من مستشفى إلى آخر، في محاولة لتيئيس المعنويات وتحطيم كلّ ما يصادفهم».

وختم صاحب «سردية الجرح الفلسطيني» حديثه بالقول: «بعد كلّ هذه الدماء، أصبح الارتباط بغزّة أعمق، سواء على المستوى الشخصي أو العامّ، وهذا الارتباط وحده ما سيرسّم لي ما تبقّى من هذه الحياة، نحن كنّا نعيش في ظلّ احتلال قاتل وآزف، وبعد السابع من أكتوبر تبيّن لنا ولغيرنا أنه قاتل متسلسل، وبالتالي يجب أخذ قرار حازم بمواجهته، منّا أو من غيرنا، القاتل المتسلسل مجرّد أن يرتكب أوّل جريمة لن يكون قادراً على التوقّف».

غسّان أبو ستّة، لندن، 7 كانون الثاني/ يناير 2024 (Getty)

فعاليات

تقدّم الباحثة والقيمة البريطانية **رشيل ديدمان**، عند الحادية عشرة والنصف من مساء الاثنين المُقبل، محاضرة افتراضية بعنوان **الانتفاضة: التطريز والمقاومة في فلسطين**. تضيء المحاضرة التي يذهب ريعها لصالح «جمعية العون الطبي الفلسطيني»، ارتباط التطريز بالاحتجاج الشعبي، وتحميله دلالات سياسية متعدّدة.

القدس بعد الفتح الإسلامي.. من القرن السابع إلى القرن الرابع عشر عنوان اللقاء الذي تنظّمه «دارة الفنون» في عمّان عند الثامنة والنصف من مساء الثلاثاء المقبل، مع المعماري والباحث السوري **ناصر الرباط**. يضيء اللقاء تطوّر عناصر الهوية الإسلامية في المدينة في مرحلة تاريخية بلغت ذروتها بعد استعادتها من الصليبيّين، حيث خُلقت تضاريس مقدّسة جديدة في القدس.

تحت شعار «ليال من أجل فلسطين»، تنطلق عند التاسعة من مساء غدٍ في «المركز الثقافي الدولي» بمدينة الحمامات التونسية تظاهرة **ليالي القمر** التي تتواصل حتى نهاية الشهر الجاري. تنظّم العروض على نحو «يرفع مكانة الحفل الموسيقي من حيث هو حدث ثقافي ليكون فعل تضامن مع فلسطين التي تكافح من أجل التحرير».

تنطلق عند الواحدة من ظهر الأحد المُقبل على خشبة «المسرح الجديد» في دبلن فعاليات **مهرجان فلسطين السينمائي المصغر** التي تتواصل ليوم واحد. المهرجان جزء من أسبوع مقاومة الاستعمار والآبارتهايد، الذي تنظّمه «حملة التضامن الايرلندي الفلسطيني»، وتتوزّع فعالياته في عدّة مدن إيرلندية طوال الشهر الجاري.